٨ ـ المعتصم بالله

بويع لأبي إسحاق المعتصم «محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي» سنة ثمان عشرة ومائتين بالخلافة، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب. وأمه أم ولد يقال لها «ماردة».

قال «ابن عبد ربه» في «عقده»: وكان أبيض أصهب اللحية، طويلها، مربوعاً مشرب اللون حمرة، نقش خاتمه: الله ثقة أبي إسحاق بن الرشيد وبه يؤمن، وكان شديد البأس، حمل باباً من حديد فيه سبعمائة وخمسون رطلاً، وفوقه عِكَام[١] فيه مائتا وخمسون رطلاً وخطا خُطىً كثيرة، وكان يسمى ما بين إصبعي «المعتصم» «المِقْطَرة» لشدته، وإنه اعتمد يوماً على غلام فَدَقَّه، وذكر «الصولي» أنه كان يسمى «المُثَمَّنَ»، وذلك أنه الثامن من خلفائهم[٢].

وقال ابن أبي دؤاد: كان «المعتصم» يخرج ساعده إليَّ ويقول: يا أبا عبد الله! عَضَّ ساعدي بأكثر قوتك، فأمتنع، فيقول: إنه لا يضرني، فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلاً عن الأسنان[٣].

وكان «المعتصم» يعفو عند المقدرة، ويصفح في ساعة الانتقام، وحلمه يكبح سيفه، فقد روى صاحب «العقد الفريد» فقال: قال «أحمد بن أبي دُوَاد»: ما رأينا رجلاً نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يحب أن يفعل إلا «تميمَ بن جميل»، فإنه كان تغلَّب على شاطىء الفرات، وأوفى به الرسول باب أمير المؤمنين «المعتصم» في يوم الموكب حين يجلس للعامة، ودخل عليه، فلما مثل بين يديه، دَعَا بالنِّطَعِ والسيف، فأُحْضِرا، فجعل «تميم بن جميل» ينظر إليهما ولا يقول شيئاً، وجعل «المعتصم» يُصَعِّدُ النظر فيه ويصوِّبه، وكان جسيماً

---

(١) العِكَام: العِذْل.

(٢) العقد الفريد (٥/ ١٢١).

(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٩١.

وسيماً، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جَنانُه ولسانُه من منظره؛ فقال: يا تميم! إن كان لك عذر فَأْتِ به، أو حجة فأدْلِ بها، فقال: أما إذ قد أَذِنَ لي أميرُ المؤمنين فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلقَ الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، يا أمير المؤمنين! إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع الأفئدة، ولقد عظمت الجريرة، وكَبُر الذنب وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربُهما منك، وأسرعُهما إليك أولاهما بإمامتك، وأشبهُهُما بخلافتك ثم أنشأ يقول:

أرى الموت بين السيف والنِّطْع كامناً ... يلاحظني من حيث ما أتلفتُ
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأيُّ امرىء مما قضى الله يفلتُ
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجةٍ ... وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
يَعِزُّ على الأوس بن تَغْلِبَ موقفٌ ... يُسَلُّ عليَّ السيف فيه وأسكتُ
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقتُ
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادُهم من حسرةٍ تتفتَّتُ
كأني أراهم حين أُنْعَى إليهم ... وقد خَمشوا تلك الوجوه وصَوَّتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بغبطةٍ ... أذود الردى عنهم وإن مِتُّ مُوِّتوا
فكم قائل لا يبعد اللهُ روحَه ... وآخرَ جذلانٌ يُسَرُّ ويشمتُ

قال: فتبسم «المعتصم» وقال: كاد والله يا تميم! أن يسبق السيفُ العَذَلَ، اذهب فقد غفرتُ لك الصَّبْوَة، وتركتك للصبية[1].

ونقل «السيوطي» عن الذهبي قوله: كان «المعتصم» من أعظم الخلفاء وأهيبهم، لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن.

وعن نِفْطَوَيْه: وكان من أشد الناس بطشاً، كان يجعل زند الرجل بين إصبعيه فيكسره، وقال غيره: هو أول خليفة أدخل الأتراك الديوان.

وكان يتشبه بملوك الأعاجم، ويمشي مشيهم، وبلغ غلمانُه الأتراكُ بضعة عشر ألفاً.

وقال ابن يونس: هجا «دعبل» «المعتصم»، ثم نذر به، فخاف وهرب حتى

(١) العقد الفريد (٢/١٥٨ ـ ١٥٩).

قدم مصر، ثم خرج إلى المغرب، والأبيات التي هجاه بها هذه:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ... ولم تأتنا في ثامن منهم الكُتُبُ
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة ... غداة ثووا فيه وثامنهم كلبُ
وإني لأزهى كلبهم عنك رغبة ... لأنك ذو ذنب وليس له ذَنْبُ
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم ... وصيفٌ وأشناسٌ وقد عظُم الخطبُ
وإني لأرجو أن ترى من مغيبها ... مطالع الشمس قد يَغَصُّ بها الشَّرْبُ
وهمُّك تركيٌّ عليه مهانةٌ ... فأنت له أم وأنت له أبُ

وتابع «السيوطي» قوله: بويع له بالخلافة بعد «المأمون» في شهر رجب سنة ثمان عشرة ومائتين، فسلك ما كان «المأمون» عليه، وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن، فكتب إلى البلاد بذلك، وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك، وقاسى الناس منه مشقة في ذلك، وقتل عليه خلقاً من العلماء، وضرب الإمام «أحمد بن حنبل»، وكان ضربه في سنة عشرين ومائتين.

وفيها تحول «المعتصم» من بغداد، وبنى «سُرَّ من رأى»، وذلك أنه اعتنى باقتناء الترك، فبعثه إلى سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم، وبذل فيهم الأموال، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب، فكانوا يطرِّدون خيلهم في بغداد، ويُؤذُون الناس، وضاقت بهم البلد، فاجتمع إليه أهل بغداد، وقالوا: إن لم تخرج عنا بجندك حاربناك، قال: وكيف تحاربونني؟ قالوا: بسهام الأسحار، قال: لا طاقة لي بذلك، فكان ذلك سبب بنائه «سُرَّ مَنْ رأى» وتحوّله إليها[1].

وكان «المعتصم» يتسم بشهامة نادرة، ومروءة فذة، ونخوة فريدة، فقد تناهت إلى مسامعه صرخة فتاة عربية مسلمة وقعت في أسر الروم في عهده، فصرخت: وامعتصماه! فهبَّ من مجلسه، وجهَّز جيشاً عرمرماً، وانطلق بنفسه إلى «عمورية» فاستنقذها من أعداء الله والدين.

وقد خَلَّد الشاعر «أبو تمام الطائي» معركة «عمورية» والانتصار العظيم الذي حققه «المعتصم» يومئذ بهذه القصيدة الخالدة، فقال:

السيف أصدق إنباء من الكتب ... في حدِّه الحد بين الجد واللعبِ

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٩٢.

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريبِ
والعلم في شهب الأرماح لامعةً ... بين الخميسين لا في السبعة الشهبِ

وكان المنجمون قد أخبروا «المعتصم» أن وقت خروجه إلى الروم ليس مناسباً، وقالوا له: إن معركته خاسرة، لكن «المعتصم» خالفهم وخرج، وعاد بالنصر المبين، فقال أبو تمام:

أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟
تخرصاً وأحاديثاً ملفقةً ... ليست بنبع إذا عُدَّت ولا غَرَب
عجائباً زعموا الأيام مُجْفِلَةً ... عنهن في صَفَرِ الأصفار أو رجبِ
وخوّفوا الناس من دهياء مظلمةٍ ... إذا بدا الكوكب الغربيّ ذو الذنبِ
وصيَّروا الأبراج العليا مرتبةً ... ما كان منقلباً وغير منقلبِ
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلكٍ منها وفي قُطُبِ
لو بَيَّنَت قطُّ أمراً قبل موقعه ... لم تخف ما حَلَّ بالأوثان والصُلُبِ
فتحُ الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخُطَبِ
فتحٌ تفتَّح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القُشُبِ
يا يوم وقعةِ عموريةَ انصرفت ... منك المنى حُفَّلاً معسولةَ الحَلَبِ
أبقيتَ جَدَّ بني الإسلام في صُعُدٍ ... والمشركين ودار الشرك في صَبَبِ
أمَّ لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا ... فداءها كلَّ أمٍّ منهمُ وأبِ
وبرزةُ الوجه قد أعيت رياضتُها ... كسرى وصَدَّتْ صدوداً عن أبي كَرَبِ
بكرٌ فما افترعتها كفُّ حادثةٍ ... ولا ترقَّت إليها همة النُّوَبِ
من عهد إسكندرَ أو قبل ذلك قد ... شابت نواصي الليالي وهي لم تَشِبِ
حتى إذا مَخَّضَ اللهُ السنين لها ... مَخْضَ البخيلة كانت زبدة الحِقَبِ
أتتهم الكُربة السوداء سادرةً ... منها وكان اسمُها فراجةَ الكُرَبِ
جرى لها الفأل بَرْحاً يوم أنقرة ... إذ غودرت وحشة الساحات والرَّحَبِ
لما رأت أختها بالأمس قد خربت ... كان الخراب لها أعدى من الجَرَبِ
كم بين حيطانِها من فارس بطل ... قاني الذوائب من آني دمٍ سَرَبِ
بسنة السيف والجِنَّاء من دمه ... لا سنةِ الدين والإسلام مختضِبِ
لقد تركتَ أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخَشَبِ
غادرتَ فيها بهيم الليل وهو ضُحًى ... يُشلُّه وسطها صبح من اللهبِ

حتى كأن جلابيب الدجى رَغِبتَ ... عن لونها وكأنّ الشمس لم تَغِبِ
ضوءٌ من النار والظلماءُ عاكفةٌ ... وظلمة من دخان في ضُحىً شَحِبِ
فالشمس طالعةٌ من ذا وقد أفلت ... والشمس واجبةٌ من ذا ولم تجبِ
تصرَّح الدهر تصريح الغمام لها ... عن يوم هيجاء منها طاهرٍ جُنُبِ
لم تطلعُ الشمسُ فيه يوم ذاك على ... بانٍ بأهل ولم تغرب على عَزَبِ
ما ربعُ مَيَّة معموراً يُطِيفُ به ... غيلان أبهى ربًى من ربعها الخَرِبِ
ولا الخدودُ وقد أُدمِين من خجلٍ ... أشهى إلى ناظري من خدها التَّرِبِ
سماجةً غَنِيت منا العيون بها ... عن كل حسنٍ بدا أو منظرٍ عَجَبِ
وحسنُ مُنْقَلَبٍ تبدو عواقبُه ... جاءت بشاشتُه من سوء منقَلَبِ
لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت ... له العواقب بين السُّمْر والقُضُبِ
تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقِبٍ في الله مرتغبِ
ومطعم النصر لمّ تكهم أسِنَّتهُ ... يوماً ولا حجبت عن روح محتجِبِ
لم يغزُ قوماً ولم ينهدْ إلى بلدٍ ... إلّا تقدمه جيش من الرعُبِ
لو لم يَقُدْ جحفلاً يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها في جحفلٍ لجِبِ
رمى بك اللهُ برجَيْها فهدَّمها ... ولو رمى بك غيرُ اللهِ لم يُصِبِ
من بعد ما أشَّبوها واثقين بها ... والله مِفتاح باب المعقل الأشِبِ
وقال ذو أمرهم لا مرتع صَدَدٌ ... للسارحين وليس الوِرْدُ مِنْ كَثَبِ
أمانياً سلبتهم نُجْحَ هاجسها ... ظُبَا السيوف وأطرافُ القنا السُّلُبِ
إن الحِمامَيْن من بيض ومن سُمُرٍ ... دَلْو الحياتَيْن من ماء ومن عُشُبِ
لبَّيْت صوتاً زِبَطْريًّا هرقت له ... كأس الكرى ورُضابَ الخُرَّد العُرُبِ
عداك حَرُّ الثغور المستضامة عن ... بَرْد الثغور وعن سلسالها الحَصِبِ
أجبته معلِناً بالسيف منصلتاً ... ولو أجبتَ بغير السيف لم تُجِبِ
حتى تركتَ عمودَ الشرك مُنْعَفِراً ... ولم تعرِّج على الأوتاد والطُّنُبِ
لما رأى الحربَ رأيَ العين تُوفَلِسٌ ... والحرب مشتقة المعنى من الحَرَبِ
غدا يصرِّف بالأموال جِرْيَتَها ... فعزَّه البحر ذو التيار والحَدَبِ
هيهات زعزعت الأرض الوَقُور به ... عن غزو محتسبٍ لا غزو مكتسِبِ
لم ينفقِ الذهب المُرْبي بكثرته ... على الحصى وبه فقر إلى الذهَبِ
إن الأسود أسود الغِيل همتُها ... يومَ الكريهة في المسلوب لا السَّلَبِ
ولّى وقد ألجم الخَطِّيُّ منطقه ... بسكتةٍ تحتها الأحشاء في صَخَبِ

أَخْذَى قرابينَه صَرْفَ الردى ومضى ... يحتَثُّ أنجى مطاياه مِن الهَرَبِ
مُوَكَّلاً بِيَفاعِ الأرض يشرفُه ... مِن خفة الخوف لا من خفة الطَّرَبِ
إن يبعد من حرها عدو الظليم فقد ... أوسعتَ جاحِمَها من كثرة الحَطَبِ
تسعون ألفاً كآساد الشَّرَى نَضجَتْ ... أعمارهم قبل نُضْج التين والعِنَبِ
يا رَبَّ حوباء لما اجتُثَّ دابرهم ... طابت ولو ضُمِّخَتْ بالمسك لم تَطِبِ
مغضَبٍ رجعت بيض السيوف به ... حيَّ الرضا مِن رداهم ميت الغضبِ
والحرب قائمة في مأزقٍ لَجِجٍ ... تجثو القيام به صغراً على الرُّكَبِ
كم نيل تحت سناها من سنا قمرٍ ... وتحت عارضها من عارضٍ شَنِبِ
كم كان في قطع أسباب الرقاب بها ... إلى المخدَّرَة العذراء من سَبَبِ
كم أحرزت قضُبُ الهندي مصلتَةً ... تهتز من قُضُبٍ تهتز في كُثُبُ
بِيضٌ إذا انتُضِيَتْ من حُجْبها رجعت ... أحقَّ بالبيض أتراباً من الحُجُبِ
خليفةَ اللهِ جازى اللهُ سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحَسَبِ
بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال إلَّا على جسر من التعبِ
إن كان بين صروف الدهر من رَحِمٍ ... موصولةٍ أو ذمام غير مُنْقَضِبِ
فبين أيامك اللاتي نُصِرْتَ بها ... وبين أيام بدر أقرب النسبِ
أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهم ... صفرَ الوجوه وجلَّت أوجهَ العَرَبِ[1]

فهل من «معتصم» ثانٍ يجيب صرخات الأرامل الثكالى، والفتيات اليتامى في فلسطين الليبة الطاهرة، التي دنسها الصهاينة اللئام بأرجاسهم؟ أم أن الأمر كما قال الشاعر «عمر أبو ريشة»:

رب وامعتصماه انطلقت ... مِلْءَ أفواه الصبايا اليُتَّمِ
لامست أسماعهم لكنها ... لم تلامس نخوة المعتصمِ

ولئن كان بعض الناس قانطاً من ظهور «معتصم» آخر ليردَّ للإسلام كرامته وعزته، فأنا لست من القانطين، والله لمن استعان به خير معين. وكانت وقعة «عمورية» سنة ثلاث وعشرين ومائتين، وولد للمعتصم ثمانية ذكور وثمان إناث، وعرفت من أمهات أولاده «قراطيس» أم ولده «الواثق»، و«شجاع» أم ولده «المتوكل»، وكانت وفاته سنة /٢٢٧/ هـ، في «سُرَّ من رأى».

(١) القصيدة في ديوان أبي تمام (١/ ٤٥ ـ ٧٩). ط. دار المعارف ـ ذخائر العرب.